

تبدأ الرواية عام 1815 في مدينة ديني الفرنسية، حيث كان جان فالجان للتو قد أطلق سراحه بعد تسعة عشر سنة قضاها مسجوناً في سجن طولون، سرقة خبز لأخته وأطفالها الذين يتضورون جوعاً، وأربعة عشر سنة أخرى عن محاولاته العديدة للهروب. يرفض أصحاب الفنادق في مدينة ديني استقباله لديهم بسبب جوازه الأصفر الذي يشير إلى كونه مجرماً سابقاً. وينام على قارعة الطريق يملأه الغضب والمرارة. يستضيفه شارل ميريل أسقف مدينة ديني في بيته، وفي الليل يهرب جان فالجان سارقاً وأواني الفضية من بيت الأسقف، يتظاهر ميريل بأنه هو من أعطى هذه الفضيّات لجان فالجان، ويصر عليه بأن يأخذ شمعدانين فضيين أيضاً، تقبل الشرطة هذا التبرير وتمضي. فيخبر ميريل جان فالجان بأن حياته قد وهبت لله، وأن عليه أن يستخدم المال الذي تعدله هذه الفضيّات لجعل من نفسه رجلاً صالحاً. يأخذ جان فالجان كلمات ميريل ويمضي، وفي طريقه يسرق نقوداً من أحد الأولاد ويطرده، وعاد يبحث عن الولد ليعيد إليه نقوده، وفي الوقت نفسه كانت سرقة قد بلغت للشرطة، فيختبئ جان فالجان حينما يبحثون عنه، لأن القبض عليه يعني إعادته إلى سجن طولون مدى الحياة. ويصير جان فالجان - مستخدماً اسم مادلين - مالكاً ثرياً لمصنع في مدينة مونتريل سرمير ويتم تعيينه عمدة للمدينة. وبينما هو يسير في طرق المدينة شاهد رجلاً محصوراً تحت عجلات العرب، وحينما لم يتطوع أحد لإنقاذه يقرر أن ينقذه بنفسه فيستلقي بنفسه تحت العرب ويرفعها لينقذ بذلك الرجل. ضابط شرطة في المدينة، والذي كان حارساً في سجن طولون وقت احتجاز جان فالجان، وأخذ يشك بالعمدة بعد أن شاهد قوته في رفع العرب. قد كان يعرف شخصاً واحداً بهذه القوة، كانت تحب رجلاً تخطى عنها، وعندما وصلت فانتين إلى مدينة مونتريل تركت طفلتها كوزيت في رعاية عائلة تيناردييه، صاحب نزل فاسد وزوجته سيئة الطباع. فانتين لم تكن تعلم أن التيناردييه كانوا يسيئون معاملة كوزيت، ويستغلونها لتعمل لديهم في المنزل، وتستمر جاهدة في تلبية طلباتهم الابتزازية والوهمية. وتتعرض مع ذلك للطرده من مصنع جان فالجان، بسبب اكتشاف قصة طفلتها التي أنجبها دون زواج. وبكل يأس تضطر فانتين لبيع شعرها وأسنانها الأمامية، والعمل في مهن وضيعة لتدفع لتيناردييه. ومع مرور الوقت تمرض فانتين. تتعرض فانتين للمضايقة في الشارع من أحدهم، فتد بضربه ويقبض عليها جافير. ورغم توسلها له بأن يطلقها لتتمكن من توفير النقود لابنتها كوزيت، يحكم عليها جافير بالسجن ستة أشهر. يتدخل العمدة مادلين (جان فالجان) ويأمر بإطلاق سراحها، يقاوم جافير ذلك لكن جان فالجان يتمكن من إنقاذها. يشعر جان فالجان بالمسؤولية لأنها طردت من مصنعه، ويعدها بأن يحضر كوزيت لها وأن يأخذها للمستشفى. فيما بعد يحصل أن يتهم رجل جائع بالسرقة بعد أن التقط من الطريق العام غصناً فيه بقايا فاكهة. ولما كان هذا الرجل كثير الشبه بجان فالجان فقد وجهت له تهمة السرقة على أنه هو جان فالجان مع ربطها بتهمة سرقة سابقة لنقود طفل ظناً بأن جان فالجان قام بها بعد خروجه من السجن بأيام. أما مفتش الشرطة جافير فقد كان من أكثر المتحمسين لإلصاق التهمة بذلك الرجل، وشهد أمام المحكمة أنه جان فالجان نفسه، ولم يكن هناك أحد يشك بصحة شهادة مفتش الشرطة جافير فهو كان ضمن سجاني السجن آنذاك. نفسه للمحكمة بعد صراع طويل مع الذات وتأنيب ضمير كي ينقذ ذلك الرجل البريء وكشف عن حقيقة نفسه مما عرضه لعقوبة السجن من جديد، وقد نظرت له المحكمة على أنه صاحب سوابق. ولكنه وخلال نقله من مكان إلى آخر مع مجموعة من المحكومين استطاع الفرار والاختفاء من جديد، وقضى بقية حياته طريداً بعد أن تبنى كوزيت ابنة فانتين بعد وفاتها وكرس حياته لإسعادها. تعبیر "البؤساء" تعبیر فرنسه بالضبط إلى الإنجليزية، إنه يعني: "ناس يعيشون في بؤس"; وهو يعني أيضاً: "ناس يعيشون خارج المجتمع وفي فقر مدقع". إن اهتمام فيكتور هوجو بالعدالة الاجتماعية واهتمامه بهؤلاء البؤساء واضح، لكن لم تكن رغبة فيكتور هوجو في تحسين الظروف للمواطنين العاديين في فرنسا التي جعلت هذه الرواية رواية عظيمة، إن البؤساء رواية عظيمة لأن فيكتور هوجو كان رومانسياً في قلبه، والكتاب مليء بلحظات من الشعر العظيم والجمال. إن فيه عمق الرؤية وحقيقة داخلية جعلت منه عملاً كلاسيكياً لا يحده وقت، أحد الأعمال العظيمة في الأدب الغربي حتى اليوم بعد 153 سنة من كتابته، يظل كتاب البؤساء قصة قوية.